طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر

هبة الله الغلاييني*

يقول الدوسهكسيلي (Aldous Huxley): «إنَّ الثقافة البشرية، والسلوك الاجتماعي، والتفكير كل ذلك لايوجد في غياب اللغة».

من هنا كانــت ولاتزال بعض الأسئلة، التي تثار بخصوص علاقة اللّغة بالتفكير، تشغل بال الباحثين في كثير من المجالات، وخصوصاً علماء النفس المهتمين بدراسة اللغة. ومن أمثلة هذه الأسئلة: هل نحن في حاجة إلى لغة لكي نستطيع التفكير؟ أم هل نحن في حاجة إلــى تفكير لنستطيع الكلام؟ وهل مهارات التفكير واللغة تنمــو ككيانات منفصلة، أم أنها ترتبط ببعضها منذ البداية؟ أيهما يعتمد على الآخر، وأيهما يسبق الآخر؟ هل نستطيع أن نتكلم دون تفكير؟ وهل هناك تفكير بلا كلام؟

لايوجــد حتى الآن بيــان شامل للعلاقة بين اللغــة والتفكير، وكل ماهنالــك أننا بصدد وجهــات نظــر وتأملات نقوم على أساس دلائل البحوث التــي يصعب تجميعها. ورغم تباين

* ناقدة ومترجمة من سورية.

وجهات النظر هــذه، ورغم أن العلاقة بين اللغة والتفكير كانــت دائماً موضع خلاف، فإنَّ الباحثين يــكادون يتفقون جميعاً الآن على أن هناك ارتباطاً بينهما.

وإذا حاولنــا أن نصــوغ فــي كلمــات موجــزة نتائــج الدراســات السابقة لهذه المشكلــة فسنجد أن الحــل الذي اقترحه لها باحثــون كثيرون، تأرجــح دائماً، منذ أقــدم العصور وحتى الوقت الحاضر، بين قطبين متباعدين: التطابق والامتزاج التام مــن ناحيــة، أو التباعــد والانفصال من ناحية أخرى.

أولاً: العلاقة بين اللغة والتفكير:

لم تظهر لدى الباحثين الأوائل مشكلة حــول علاقة التفكير باللغــة. فقد انتهى واطســون (Watson)، مؤسس السلوكية القديمة، إلــى أن التفكير هو اللغة. وبناء على ذلــك فإن التفكير عبــارة عن تناول الكلمات فــي الذهن، أو أن التفكير عبارة عن عــادات حركية فــي الحنجرة، أو هو حديــث داخلي يظهر في الحــركات قبل الصوتية لأعضاء الــكلام، أي أنّ التفكير كلام ضمني. وربّما يكــون ذلك هو الذي قــاد المدرســة السلوكيــة الأمريكية في مراحلهــا المبكّــرة إلى رفضــ التسليم بوجود أي متغيرات وسيطية بين المنبهات والاستجابات. إلّا أن التجارب التي أجريت علــى البكــم تشير إلى أن هــذه الحقيقة غير مقنعة تمامــاً لأن التسليم بمثل هذا الــرأي يدعو إلى التخلي عن المشكلة من أساسهــا. فلا مجال للتســاؤل عن علاقة التفكير باللغة أو الكلام (حيث كان تركيز واطســون مركزاً علــى التفكير والكلام). فلا وجه للسؤال عن علاقة الشيء بذاته. وهناك وجهة من النظــر أقل تطرفاً، لها تاريخ طويل في علم النفس الروسي. ومن أمثلة أولئك الباحثين المبكرين الذين عنوا بهذه المشكلة سيشنــوف (Sechenov) (١٨٦٣م) أبو الفسيولوجيا الروسية، ومعلم بافلوف. فهــو يقول: «عندما يفكر الطفل فهو يتكلم في الوقت نفسه. فالتفكير الذي يحدث في سن الخامســة ينتقل بوساطة الكلمــات، وبالتأكيــد من خــلال حركات اللســان والشفــاه، وهو مايصــدق أيضاً بالنسبة لتفكيــر الراشدين». ومعنى هذا أن نظرة علماء النفس الروسيين للمشكلة مؤدّاها أن اللغة والتفكير مرتبطان تماماً بالطفولة. ولكن مع الارتقاء يصبح تفكير الراشدين متحرراً من اللغة بطريقة ما إذ يتحرر –على الأقل– من استجابات الكلام الصريحة والضمنية.

وقد اكتسب هذا الاتجاه دلالة كبرى على يد عالم النفس الروسي (Vygotsky) في كتابه الرئيس «التفكير واللغة» (Thought and Language) (١٩٣٤)، والذي ركَّز فيه على منظور ارتقائي. ويتصور فيجوتسكى أن الكلام - لدى الطفل- يكون اجتماعياً في البداية ثم يليه الكلام المتمركز حول الذات وبعده الكلام الداخلي (أو التفكير). وهو بالطبع يناقض التصور السلوكي والتتابع الارتقائي لدى بياجيه.

ويقرر فيجوتسكى صراحة «إنَّ تدفق التفكير لايصاحبه ظهور متزامن للكلام» فالعمليتان ليستا متماثلتين، ولايوجد تطابق جامد بين وحدات التفكير ووحدات الكلام. ويتضح ذلك عندما يساء تنفيذ عملية التفكير. فالتفكير لايدمج في الكلام» كما يرى ديستوفسكي (Dostoevski)، فالتفكير له بناؤه الخاص، والانتقال من التفكير للكلام ليس مسألة يسيرة. فالتفكير -إذن- في رأي فيجوتسكى لايتم التعبير عنه في كلمات، ولكنه يأتي إلى الوجود من خلال هذه الكلمات. والكلام الداخلي -بالنسبة لفيجوتسكى- ليس مجرد النطق الصوتي للجمل، كما يرى واطسن، أنه صورة أو شكل خاص من أشكال الكلام، يقع بين التفكير والكلام المنطوق.

ويقدم بياجيه (Piaget) -من ناحية أخرى- تصوراً يناقض التصور السلوكي. فمدرسة بياجيه ترى أن الارتقاء المعرفي يحدث أولاً ثم يتبعه الارتقاء اللغوي، أو أنه ينعكس. أي التفكير -على لغة الطفل، وينمو تفكير الطفل خلال تفاعل الطفل مع الأشياء والناس في بيئته. ويتأثر ارتقاء اللغة حسب مدى تدخلها في هذه الأشكال من التفاعل، لكنها لاتنمو عبر النمو المعرفي. ويرى بياجيه أن الكلام المتمركز حول الذات يظهر لدى الطفل الذي يسلك، ويتحدث كما لو كان كل مايراه ملكه هو، ويبدو غير قادرٍ على فهم وجهة نظر الآخرين، أو أن يدرك الأشياء من الوضع المختلف.

إنَّ الحوار المتمركز حول الذات يمضي حسب موقف الطفل الحالي، كما أنه يقوم بوظيفة تنظيم وتوجيه الذات، وفي الثالثة من العمر يكون نصف منظومات الطفل متمركزاً حول الذات. وينخفض هذا بسرعة إلى الربع في سِن السابعة، والكلام المتمركز حول الذات لايشار إليه بالضرورة باستخدام الضمير «أنا».

إنَّ الارتقــاء النسبي للــكلام المتمركز حول الذات، والكلام الاجتماعي ووظيفة كل منهما كانت محل خلاف وجدل بين بياجيه وفيجوتسكــي، فكثيرون، ومنهم بياجيه، لم يوافقوا على رأي فيجوتسكي، فهو يفترض أن كل الكلام يكون اجتماعياً بشكل ضمني علــى الرغم من عــدم استخدامــه دائماً كوسيلة للتخاطب مع الآخرين. وأحد الأدلة التي يعتمد عليها فيجوتسكي، في اعتقاده بــأن الكلام اجتماعي أصــلاً، هو أنه عند وضع طفــل سوي مع آخر أصــم، أو طفل أجنبي فإنَّ الــكلام المتمركز حول الذات يختفــي، لذلــك فالــكلام المتمركز حول الذات مهم كموجه لأفعال الطفل.

وينظــر فيجوتسكي للــكلام المتمركز حــول الذات على أنه مرحلــة انتقالية من الــكلام الاجتماعي إلى الــكلام الداخلي. وتدخيــل الــكلام (أي تحويلــه إلى كلام داخلي) يعني أن عمليــات التفكير تحدث وتوجه من دون الحاجــة للكلام الصريح. وهنــاك بعضــ الباحثين يــرون أن اللغة والفكر ينبعان مــن أصول مختلفة. فهناك مايمكن أن نطلــق عليه التفكير قبل اللغة، والــكلام السابــق علــى التفكيــر اللذين يندمجــان عند وصــول الطفــل للمرحلة قبــل الإجرائية. وعلى الرغم من ذلك فإن اندماج التفكير والكلام ليس كاملاً، حيث تستمــر درجة من استقــلال بعض جوانب اللغة والتفكيــر. ويركّز بياجيه على وصف بنية النمو المعرفي «أو مايحدث في تكوين المفهــوم». وبنمو القدرة علــى استخدام الصــور الذهنيــة، والرموز عنــد الطفل، فإنه يدخل (فــي رأي بياجيه) إلى مرحلة ماقبــل العمليــات، وهي المرحلــة التالية للمرحلة الحسية وتبدأ من سن الثانية حتى السابعــة تقريباً، وقد أطلــق بياجيه على هذه المرحلة اسم مرحلة ماقبل العمليات، لأن الطفــل -في رأيه- لا يكون قد اكتسب القدرة علــى القيام بالعمليــات المنطقية التي تتصف بها المراحل التالية في النمو العقلي. ذلك أنه مع بداية التمثيل الرمزي للبيئة، ونمو القــدرة على التصور الذهني للأشياء والأحداث فإنَّه يتكون لدى الأطفال مفاهيم غير ناضجة يسميها بياجيه ماقبل المفاهيم. مثلاً قد يكون لدى الأطفال في هذه المرحلة فكــرة عامة وهي أن الطيور لهــا أجنحــة وتطير وغالبــاً ماتوجد على الشجر، أو أن السيارات لها عجلات وأبواب وتوجــد في الشوارع. إلا أنهم لايستطيعون أن يميزوا بين الأنواع المختلفة من الطيور أو السيارات. وبمجــرد وصول الطفل إلى هذه المرحلــة تأخذ القدرة على استخدام

الرموز والصور الذهنية في الازدياد بشكل واضـح، وبسرعــة كبيرة، فتــزداد قدرته اللغويــة زيادة هائلة، ويصبح في إمكانه أن يتصور أساليب جديدة للّعب الإبداعي.

أمَّــا «شتــرن» فيميّــز بيــن ثلاثــة أصول للــكلام: الميل التعبيــري، والميل الاجتماعي، والميل القصــدي. ويرى أن الثالث هو الذي يميّــز الإنسان على وجه الخصوصــ. فالإنسان فــي مرحلة معينة من مراحل نموه النفســي يكتسب القدرة على أن يعني شيئاً من الأشياء عند تلفظه بأصوات معينــة، وعلى أن يشير إلى شيء موضوعي من الأشياء. وفي الحقيقة تمثل هذه الأفعــال القصدية أفعــالاً للتفكير، وبالتالي فــإنَّ ظهورها يشيــر إلى تعقيل وتوضيع الــكلام. ولذا يؤكــد شترن على أهمية عامل المنطق في نمو اللغة، ويقرر أنه في المنطــق الطفلي تتضح القصدية ويصطبــغ الــكلام بالخاصيــة الإنسانية المميــزة. وإذا أخذنــا بوجهة نظر شترن فعلينــا أن نسلم معه بــأن الطفل في سن العــام ونصف إلــى العاميــن يتمتع بفهم العلاقــة بين الرمــز والمعنــى، وإدراك الوظيفــة الرمزية للغــة، والوعي بمعنى اللغــة وباكتســاب الإدارة، وأخيراً الوعي بوجــود قاعدة عامة أو فكــرة عامة، وإنَّ اكتشاف الطفل للوظيفــة الرمزية للكلام يمثّل بالفعل عملية تفكيرية بكل مايحمله ذلك مــن معنى وهو مالم يتأكد من خلال عدد من الدراســات التالية، لأنَّ مانعرفه عن عقل الطفل في سن العام ونصف إلى السنتين من العمر يتعارض مع الفكرة التي تفترضــ أن الطفل في هــذه السن يكون قادراً على تلك العمليات العقلية المركبة.

وعلى الرغم ممّا تقــدم فإنَّ شترن لم يتطــرق صراحــة إلى تنــاول موضوعات هامة كالكلام الداخلــي ونشأته وارتباطه بالتفكير، بل استعرض نتائج بحث بياجيه عن الــكلام المتمركز حول الذات(ego – centric) في مناقشته لمحادثات الأطفال، متجاهلاً مالهذا الشكل من أشكال الكلام مــن وظائــف، وأهمية ارتقائيــة. وبصفة عامة لم يقدّم شتــرن مايدل على نجاحه في ربــط التغيرات التركيبيــة والوظيفية المعقدة في التفكير بنمو الكلام. وتتلخص الحقائــق الأساسية التي لــم تتكشف من خلال الدراسة الارتقائية للتفكير والكلام في أن العلاقــة بينهما تخضــع لتغيرات كثيرة. ولايسير التقدم في التفكير والتقدم في الــكلام بطريقة متوازنــة، فمنحنيات نموهما تتلاقــى وتتباعد، ويمكن أن نذكر الحقائق التالية:

أ . للتفكير والكلام في تطورهما أصول مختلفة.

ب . يمكــن أن نحــدد مرحلــة لماقبل النشاط العقلي في النمو الكلامي للطفل، ومرحلة لماقبل اللغة في نمو تفكيره.

جـ . يسير نمو الــكلام والتفكير -حتى فتــرة معينة- فــي خطــوط مختلفة دون ارتباط أحدهما بالآخر.

د . عنــد نقطــة معينــة تتلاقــى هذه الخطوط، وبعدها يصيــر التفكير كلامياً والكلام عقلياً.

ويمكــن أن نتصــور، مــن الناحيــة التخطيطيــة، التفكير والــكلام كدائرتين متداخلتين، في أجزائهما المتداخلة يتّحد الكلام والتفكير لينتجــا مايسمى التفكير الكلامي، لايتضمــن كل أشكال التفكير أو كل أشكال الكلام. وماهو جدير بالذكر هنا أن هذا الاتجاه الذي يرى الفصل بين اللغة والتفكير -كمقابل للاتجاه السلوكي- ليس بالاتجــاه الأمثل أو الأحسن، فمن يرون أن الكلام تعبير خارجــي للفكرة أو ثوب لها، أو مــن ينزعــون إلى تحريــر التفكير من كل المكونات الحسية بمــا فيها الكلمات، يتصــورون العلاقــة بين الفكــرة والكلمة كعلاقة خارجية بحتة. وهم بذلك لايحلّون المشكلة، لأنهم يدرسون خصائص التفكير مستقلاً، ثــم خصائص الكلام معزولاً عن التفكيــر ثــم يتصورون وجــود علاقة بين هــذا وذاك على أنهــا ارتباط آلي خارجي لعمليتين مختلفتين. وعلينا أن نتصور -في ضوء ماتقدم- ماسيحدث عند الفصل بين الصــوت والمعنى، وهــل ستختلف عندئذ أصوات الحيوانات عن الأصوات البشرية. ذلك أن عــزل هذين الكيانين عن بعضهما يفقدهما خصائص الكلام التي تميّزه عن كل الأصوات الموجودة في الطبيعة.

إنَّ وحدة اللغــة والتفكير أو ارتباطهما نجدهــا في الجانب الداخلــي للكلمة، أي في معناها. ومعنى الكلمة واكتشافه يعتبر عمــلاً للتفكير، وبجانب ذلك يعتبر المعنى جــزءاً لايتجزأ مــن الكلمــة. فالكلمة من دون معنــى ليست كلمــة، وإنما هي صوت فــارغ. والكلمــة بافتقارهــا إلــى المعنى لاتنتمــي إلــى عالم الــكلام. وعليــه فإنَّ المعنى يمكن اعتبــاره -بدرجة متكافئة- ظاهرة كلاميــة وظاهرة منتمية إلى مجال التفكير وهو يمثل وحــدة التفكير اللغوي. ويــرى بعضهم أن هناك توازناً بين التفكير واللغة. ولاينبغــي أن تؤخذ العلاقة بينهما على أنها علاقة سببية. فقد تُصاغ اللغة أو تُشكَّل من خلال الظروف البيئة، والتنظيم الاجتماعــي، وأساليب التفكيــر السائدة،

وهذا لا يمنع اللغة من التأثير في التفكير، رغم أنه لايمكن القول إنَّ دراسة اللغة في حد ذاتها يمكن أن تعين على توضيح الخاصية العامة للتفكير لدى مستخدميها.

وفي مقابل الاتجاهين السابقين: الاتجاه الأول يمثله السلوكيون (الذي يرى أنه لايوجد فرق بين اللغة والتفكير، وأنهما شيء واحد)، والاتجاه الثاني هو الذي يمثله فيجوتسكى وبياجيه (والذي يرى الفصل بين اللغة والتفكير). ويوجد اتجاه ثالث يرى أصحابه أن اللغة والتفكير مترابطان ارتباطاً وثيقاً، باعتبار أن اللغة هي الوعاء أو المظهر الخارجي الذي يتم تقديم الفكر من خلاله. ومع أن مايدور بخلد الإنسان يمكن التعبير عنه بأكثر من وسيلة، كالرسم بالألوان، أو الموسيقا، إلّا أن اللغة هي أكثر الأدوات شيوعاً في التعبير عن الأفكار، بل هي أكثرها دقة وشمولاً ومباشرة. نحن لانستطيع -كبشر- أن نفكر في شيء لاتسمح به كفاءتنا اللغوية، كما أننا لانستطيع أن نتكلم عن شيء لانستطيع التفكير فيه، فنحن محكومون إلى مدى معين في أفكارنا وأفعالنا باللغة التي نعرفها. والدليل على وجود مثل هذه العلاقة الوثيقة بين اللغة والتفكير بترجمة قولنا أحيانا: «أنا أعرف ماأعنيه، ولكني لاأعرف كيف أشرحه»، ويوحي ذلك القول إنَّه في بعض الحالات يمكن أن يكون التفكير مستقلاً عن اللغة. كما أن هناك عدَّة أنواع من التفكير، بعضها يبدو مرتبطاً باللغة، وبعضها الآخر يبدو أقل ارتباطاً بها.

ومانقصد هنا بالتفكير هو:

ا . الأفكار سواء كانت صوراً ذهنيةً أو أفكاراً مجردةً.

ب . الاتجاهات العامة للتفكير، وطرائق التفكير وأساليبه.

وهذان المحوران هما اللذان تتبدى من خلالهما بشكل واضح العلاقة بين التفكير واللغة. فألفاظ اللغة تعبّر عن الأفكار المناظرة لها في عقل الإنسان، وتدل عليها. وقد عبّر عن هذا المعنى «دي سوسير» عندما عرَّف اللغة بأنها «مجموعة من العلامات تعبّر عن الأفكار» غير أن التفكير لايكون تفكيراً إلّا إذا مارس العقل وظيفته الأساسية، وهي «الربط»، أي إذا تم الربط بين عدّة أفكار، إمَّا لتكوين فكرة موحّدة عن شيء من عدّة صور ذهنية، وإمّا لتكوين فكرة مجردة عن شيء من مجموعة من الأفكار المتماثلة أو المتشابهة في صفة أو أكثر، وإمّا لتكوين اتجاه عام في التفكير يسود أغلب موضوعات الفكر: كالاتجاه الاستقرائي أو الاتجاه الاستدلالي

بوجـه عام. واللغـة ترتبـط بالتفكير من هاتيـن الزاويتين، زاوية الأفـكار، وزاوية الاتجاهات الفكريـة. فالأفكار يتم التعبير عنهـا بالألفـاظ وبالسياقـات التـي ترد فيها تلـك الألفاظ. كما يتـم التعبير عن الاتجاهـات الفكرية بالتعبيـرات اللغوية المختلفة. وتنبثق من هذا الاتجاه -بصفة عامة- ثلاثـة اتجاهات فرعيـة: الاتجاه الفرعـي الأول: يرى أصحابه تغليب جانب التفكيـر في تأثيـره على اللغـة. فبرونو (Brunot) يـرى أن التفكيـر سابق على اللغة التـي ينحصر دورها في التعبير عنه بالذات، حيث يناسب كل حدثٍ فكري حدثاً لغوياً. ولمـا كانت اللغات تتشكل. في جزء منها بوساطـة الأفكار، والقدرات المؤثّرة، والعوامل الاجتماعية التي يمتلكها الأفراد فإنَّ لها ملامح مشتركة أو عموميات، حيث إنَّ الناسـ يحتاجون إلـى الإشارة للأشياء فـإنَّ كل اللغات تتأثـر وتتشكل إلى حد ما بالخصائص العارضة للتفكير والتكنولوجيا والثقافة.ويقرركورزبسكي(Korzybsky) أنَّ طريقـة التفكير لـدى مجتمعات معينة هي التي تحدد أسلـوب تراكيبهم اللغوية. فعلى سبيل المثال، لأن التفكير عند العرب والفرنسيين يغلب عليه الطابع الاستدلالي (deductive) فـإن الصفة فـي لغتهما تتبع الموصوف بينما التفكير عند الإنجليز تفكيـر استقرائـي (inductive)، تأتـي الصفـة قبل الموصـوف. الاتجاه الفرعي الثاني: يعتقد أصحابه أن اللغة أكثر تأثيراً في التفكيـر خصوصاً لـدى الجماعات. فاللغة لاتوجد في فراغ. إنها تخدم أنساقاً أخـرى في العقـل البشـري (وتتأثر بها)، ولأنهـا تستخدم لنقل الأفـكار فينبغي أن يعكسـ بناؤهـا ووظيفتها هـذه الأفكار. ولأنها تستخدم فـي التواصل داخل أنساق اجتماعيـة وثقافية معقّدة فـإنّ وظيفتها وبناءها يتأثران بهذه القوى أيضاً. وبالتالي فإنّه بمجرد أن نتعلم كيفية استخدام اللغة فإنها تصبح قوة في حد ذاتها فتساعدهم علـى التفكير (رغم أنها تعيق هذا التفكير في بعضـ الأحيـان). إنَّ النسـق اللغوي ليس أداة لإعـادة إنتاج الأفكار المنطوقة، وإنّما هو المشـكل للأفكار، وهو المبرمج والموجه للنشاط العقلـي للفرد، ولتحليل الانطباعـات، وصياغة وحـدات التفكير. هـذه الصياغـة للأفـكار ليسـت عملية مستقلة، وإنما هـي جزء من النحو، وتختلف من لغة إلى لغة أخرى. وترجع أصول القول إلى أنَّ اللغـات المختلفة تؤثر في التفكير بطرائـق مختلفـة إلـى بدايـة الفلسفة. ويحمل فرض النسبيـة اللغوية، والحتمية

اللغويــة (linguistic relativity and linguistic determinism)، اســم «فرضــ وورف» (Lee Whort) في علم الاجتماع الأمريكي. ويستمد وورف أصول ذلك من أستاذه إدوارد سابير (E. Sapir). ولاحظ أثناء عمله أن الحرائق تشتعل حين يفقد الناس حذرهــم، وحين يقرؤون كلمة (فارغ) مكتوبــة على صهاريج البترول، في صهاريج لــم تعد قابلــة للاشتعال، وخرج مــن هــذه الملاحظة بــأن الكلمــات هي العلة فــي اشتعال الحرائــق. وكان وورف من المشتغليــن بالفكر والثقافة، وله إلمام كبير بلغات الهنود في أمريكا، فعمّق فكرته السابقــة عن علاقة اللغة بالفكر والثقافة، وتمخضت دراستــه عن فرض ينسب إليه.

ومــن الأدلة التي اعتمــد عليها وورف في تأكيد فرضه اختلاف تسمية الألوان . على سبيل المثال -فالذي يعيش في ثقافة عربية قد يجيب عن سؤال خاص بعدد ألوان قوس قــزح بأنها ستــة هي الأحمــر والبرتقالي والأصفر والأخضــر والأزرق والبنفسجي، وهذا صحيح بالنسبة له، لكنه غير صحيح بالنسبــة لمن يتحدث اللغة الروسية، حيث ينقســم اللون الأزرق فيهــا إلى لونين لكل منهما اسم خاص (يقارب قولنا أزرق فاتح، وأزرق غامق)، كما تختلف اللغات أيضاً في مدلول الاســم والفعل، وفي الأزمنة (حيث توجد لغــات تفرّق بين الماضي والمضارع والمستقبــل). وهكذا يبدو لنــا أن اللغات المختلفة تقيس العالم المحيط بنا بطرائق مختلفة، بل إنَّ المفاهيم العامة مثل الزمان والمــكان اتخذت مسميات مختلفة. جوهر هذا الفرضــ إذن إنَّ اللغة هي التي تجعل مجتمعــاً ما يتصرف ويفكر بالطريقة التي يتصــرف ويفكر بهــا. وإن المجتمع لايرى العالــم إلّا من خلال لغتــه. فاللغة تساعد التفكيــر وتساعد على نمــوه وينطوي هذا الموقف على جانبين:

١ ـ التسليــم بالنسبــة اللغويــة، أي أنَّ المتكلمين باللغات المختلفة لديهم إدراكات وتصورات مختلفة عن العالم.

٢ ـ الحتميــة اللغوية: وتدَّعــي أنَّ بناء اللغــة يضع قيوداً أو شروطاً على تمثيلات اللغة (الأفكار).

وفي هذا الصدد يذكر سابير «أنَّ البشر لا يعيشون فــي العالــم الموضوعي فقط، ولا فــي عالــم النشــاط الاجتماعي فقط، كما يفهم عــادة، لكنهم يعيشون أيضاً تحت رحمــة اللغة المعينة التي أصبحت وسيلتهم للتعبير والتفاهم مع مجتمعهم. ومن الخداع أن نتصــور أن الفــرد يمكــن أن يتوافق مع الواقع دون استخدام اللغة، وأن اللغة وسيلة

اتفاقية (اصطلاحية) لحل مشكلات معينة في التخاطب أو التفكير. وحقيقة الأمر أن العالم الواقعي باتساعه بُنِيَ لا إرادياً على العادات اللغوية للمجموع». وتكشف الفقرة السابقة أن «سابير» يرى أن الخبرة تتأثر باللغة المعنية التي يتكلمها الفرد. غير أن قوة هذا التأثير ليست واضحة، كما يتضح أيضاً من هذه الفقرة أن سابير عبّر عن قضية الحتمية اللغوية، والنسبية اللغوية بطريقة قوية، وأخرى ضعيفة. ويتساءل بعض الباحثين، لماذا ينبغي أن نتوقع أن هناك تأثيرات لغوية محددة في المعرفة؟ ولو كان الأمر كذلك، فما هو الدليل الذي يجبرنا على التسليم بالنسبة اللغوية؟ يبدأ الناس التفكير في النسبة اللغوية عندما يقاربون اللغات ويكتشفون الاختلاف في فئات الخبرة المتجسدة في اللغات المختلفة. ويمكن تمثيل هذه الفئات من خلال اللغة بطرائق متعددة: (١) بالمفردات في المعجم (المنزل، الأبيض..إلخ). (٢) بأجزاء الكلام التي تؤدي الوظائف النحوية (منزل في مقابل منازل، وهذا منزلي). (٣) كذلك خلال عمليات النحو المتعددة (ترتيب الكلمات كما تستخدم للتمييز بين الفاعل والمفعول به في اللغة العربية مثال: صافح محمد علياً وصافح علي محمداً). تختلف اللغات -إذا- إلى حد كبير في كل من الفئات التي تعبّر عنها، وفي الوسائل اللغوية الخاصة التي تستخدم في تمثيل هذه الفئات. وهذه الاختلافات أبعد من الحقيقة المعروفة الخاصة بأن معظم الكلمات ليس لها ترجمة تامة كاملة مكافئة من لغة إلى أخرى. وقد أدت بعض الدراسات الأمبيريقية التي حاولت فحص فرض وورف إلى التأكد ممّا إذا كانت عمليات تفكير الإنسان البدائي تعكس بالفعل بناء لغته أم لا؟ إلى نتائج غير حاسمة. وقد حاول أسجود وزملاؤه أن يختبروا فرض «وورف» بتطبيق المميز الدلالي على مصطلحات متكافئة في لغات مختلفة. وتوحي دراساتهم بنتائج تناقض فرض وورف. أي أن هناك اتفاقاً بين الثقافات المختلفة في معاني الكلمات. غير أن هناك تحفظات ينبغي ملاحظتها في هذا السياق وهي أن المميّز الدلالي يعنى بفحص المعنى الدلالي، لاالمعنى الإشاري.. وعلى الرغم من الاتفاق العام بين الثقافات المختلفة إلّا أن هناك بعض التباينات في عملية قياس المعنى، حتى مع افتراض تكافؤ المصطلحات، فليس لدينا طريقة لمقارنة الاستخدام الموضوعي للمصطلحات في المنطوقات الفعلية بوساطة متحدثين بألسنة مختلفة.

والاتجـاه الفرعي الثالث والأخير هو اتجاه توفيقــي، يقدّم حلاً وسطــاً لقضية علاقة اللغة بالتفكير، ويتحاشــى الانتقادات التي توّجــه إلى المناحــي والاتجاهات الأخرى. ويرى مؤيدوه أن العلاقة بين اللغة والتفكير علاقة ديناميــة متبادلة من حيــث التأثير والتأثر، فــكل منهما يؤثر في الآخر، ويتأثر به. فنحن لا نستطيــع أن نتكلم بما لانقدر أن نفكــر فيه، ولا نستطيــع أن نفكر بعيداً عن قدرتنا اللغوية، وهذا الاتجاه الأخير هو الأكثر شيوعاً وقبولاً لدى المعاصرين. ومن هذا المنطق ينبغــي أن تتعدل الأسئلة التي تشغــل بال العلماء المهتميــن بقضية اللغة والتفكيــر، بحيث ينشغلون بتوفير الأساليب الموضوعية الدقيقة التي تقيس العلاقة بين اللغة والتفكير، وكيفية التعرف على أشكال الاضطراب التي تلحق بكل من الوظيفتين، ومــا إذا كان اضطــراب إحداهما يقود إلى اضطــراب الأخرى. وهو مانعتقد أنه ينبغي أن يستنفــد جزءاً كبيراً مــن مجهود علماء النفس الإكلينيكيين.

وخلاصــة القول: إنّه لايمكن فصل لغة المجتمع عن ثقافته فصلاً تاماً. فهناك – دون شــك– علاقة بين اللغــة والثقافة في مجتمع ما. هذه العلاقة يمكن تصورها على أنهــا علاقة دينامية تفاعلية، حيث لايمكن –إلى الآن– الجزم بــأي من المتغيرين هو الأسبق، وأيهما الذي يؤثر في الآخر.

المراجع

١ . مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مطبعة الحلبي، (١٩٧٢م).
٢ . علم اللغة بين التراث والمعاصرة، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (١٩٨٧م).
٣ . الدراسة النفسية للغة، عبد الحليم محمود السيد، القاهرة، دار آتون للطباعة والنشر، (١٩٨٨م).
٤ . الطب النفسي المعاصر، أحمد عكاشة، القاهرة، الأنجلو المصرية، (١٩٨٨م)، الطبعة السابعةم.
٥ . الإبداع والمرض العقلي، صفوت فرج، القاهرة، دار المعارف، (١٩٨٣م).